﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٖ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [القمان: 23 - 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

ذِكْرُ حالِ الكافِرِ بَعْدَ ذِكْرِ حالِ المُسْلِمِ

لَمّا ذكر اللّهُ تَعالى المُسْلِمَ وجهَهُ بقوله: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾؛ ذكَرَ ما يُضادُّ ذلكَ وهو الكافرُ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡزُنكَ﴾: (حزن) تَدور تَصْريفاتُه على مَعْنى خُشونةِ الشَّيءِ والشِّدَّةِ فيه[2]، ومِنْهُ: الحَزَنُ؛ وهو الغِلَظُ مِنَ الأرضِ[3]، والحُزْنُ؛ وهو ضدُّ الفَرحِ والسُّرور؛ لأنَّه شدَّةٌ تَعْتَري قَلْبَ الإنْسانِ[4]، وحقيقَةُ الحُزْنِ: غَمٌّ مِن أمرٍ فائتٍ[5]، وهو المُرادُ منَ الآية.

2) ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾: (متع) تدلُّ اشْتِقاقاتُه على مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ[6]، والماتِعُ: الجيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[7]، والمَتاعُ: كُلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ويُتبلَّغُ بِهِ ويُتزوَّد[8].

والتَّمْتيعُ: الإمْهالُ[9]، والمقصود بالتَّمتيع في قولِهِ: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ نُمْهِلُهُم في هذه الدُّنيا مُدَّةً يَسيرةً يَنْتَفِعون بأعْراضِها الزّائلة[10].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 188.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حزن).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (حزن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).
(5) الشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 4/ 462.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (متع).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 150.

3) ﴿غَلِيظٍ﴾: (غلظ) تدُلُّ تَصْريفاتُه على عِظَم الجِرم وتجسُّمِه مع صلابَةٍ، ويَلْزَمُ مِنْهُ الشِّدَّة والقوَّة والحدَّة[1]، والعَذابُ الغَليظُ؛ هوَ شَديدُ الألَم، وغَلُظَ الرَّجُلُ: إذا اشْتَدَّ، فهو غَليظٌ، وفيهِ غِلْظَةٌ، أيْ: شِدَّةٌ واستِطالَةٌ، فهو غَيْرُ لَيِّنٍ ولا سَلِسٍ[2]، والتَّغْليظُ: التَّكْبيرُ والتَّعْظيمُ، ويأتي بمعنى التَّشديدِ والتَّوكيدِ، ومنه: عَهْدٌ غليظٌ، أي: مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ[3].

والعَذابُ الغَليظُ: الشَّديدُ الإيلامِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الصَّبْرُ على كفرِ الكفّارِ وانْتِظارُ الجَزاءِ في الآخِرَةِ

ومَن كَفَر باللهِ سُبْحانَهُ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُه، ولا تَذْهَب نَفْسُك عليهِم حَسْرَةً؛ لأنَّك أدَّيْتَ ما عليكَ مِنَ الدَّعوة والبَلاغ، فإنَّ مَرْجِعَهُم ومَصيرَهُم يومَ القيامة إلَيْنا، ونحنُ نُخْبِرُهُم بأعْمالِهِم الخَبيثَةِ التي عَمِلوها في الدُّنيا، ثُمَّ نُجازيهم عَلَيْها، إنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ ذو عِلْمٍ بِما تُكِنُّه صُدورُهُم مِنَ الكُفْرِ باللهِ ﷻ، وإيثارِ طاعَةِ الشَّيطانِ.

نُمْهِلُهُم في هذه الدُّنيا مُدَّةً يسيرةً يَتَمَتَّعون فيها، ثُمَّ نُلْجِئُهم يومَ القيامة إلى عذابٍ فظيعٍ شديدِ الإيلامِ، وهوَ عذابُ النّار[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

تَناسُبُ الجُمْلَتَيْنِ لَفْظًا ومَعْنًى

(الواوُ) في ﴿وَمَن﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ عاطفةٌ، عطفَتِ الجُمْلَةَ بعدَها على جملةِ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التّناسُب؛ إذِ الجُمْلَتانِ مُتَّفِقتانِ في الخبَريَّة، وبينَهُما مناسبَةٌ لفظيَّة وأُخرى مَعْنَويَّة، فأمّا اللَّفظيَّةُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غلظ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غلظ).
(3) الخليل بن أحمد، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غلظ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 150، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 413.

فاشْتِراكُهُما في الاسميَّة، وأمّا المَعْنَويَّةُ فما بينَهُما مِنَ الجامِعِ الوَهْميِّ وهوَ التَّضادُّ؛ فإنَّ اللّه سُبْحانَهُ لَمّا ذكَر مَن أسْلَمَ وجهَهُ إليهِ تَعالى؛ ذَكَر ما يُقابِلُه وهو الكافِرُ.

مَعْنى (مَنْ) ومَوْقِعُها الإعْرابيُّ:

قيامُ النَّبيِّ ﷺ بِالبَلاغِ أتَمَّ قيامٍ

(مَنْ) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ اسمُ شرطٍ جازِم في محلِّ رفعٍ مبتدأٌ؛ لأنَّ الفعلَ بَعْدَهُ ﴿كَفَرَ﴾ لازِمٌ، فتكون جُمْلَة ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ اسْميَّةً، وهيَ مفيدَةٌ الثُّبوتَ والدَّوام، أي: إنَّ الذي ثبتَ له الكُفْرُ ودامَ له هذا الوصفُ لا يَنْبَغي أن يَحْزُنَ النّبيَّ ﷺ كفرُهُ، فمَن كانَ كُفْرُه عارضًا من بابِ أولى أن لا يكونَ سببًا لحُزْنِ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه قام بالبَلاغ أتَمَّ قيامٍ وأكملَه، واسمُ الشّرطِ مُفيدٌ للعموم، فيكونُ بمثابةِ القاعدةِ الكليَّة، أي: كلُّ مَنِ اتَّصفَ بالكفر لا تحزَنْ أيُّها النّبيُّ الكريمُ عليه، وفُهِم منهُ أنَّ النّبيَّ ﷺ كان يفرَحُ ويُسَرُّ بمَنْ يُسلِمُ وجهَهُ للّه وهو مُحسِنٌ، وذلك الانفعالُ لم يردْ فيه نهيٌ ممّا يدلُّ على رِضا اللّه تعالى به، وفي ذلك غِبطةٌ للمُحسنينَ بأنَّ النّبيَّ ﷺ يفرَحُ بهم ويَرضى اللّه عنهُ، كما فُهِم بدلالةِ المُقابلة أنَّ الكافرَ لم يَستمسِكْ عندَ الكُفر بعُروةٍ فضلًا عن أنْ تكونَ وُثْقَى.

المغايرةُ بينَ الفِعلينِ:

الإسـلامُ حركةٌ متجدِّدةٌ والكفرُ حالةٌ سُكونيّةٌ

عبَّر النّظمُ الكريمُ عن حالتَي الكُفر والإسلام المُتقابلتَين بالفعلِ المُضارع تارةً، فقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ﴾ والفعلِ الماضي أُخرى فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، للدِّلالةِ على أنَّ إسلامَ الوجهِ للّه وممارسةَ العملِ الصّالحِ والإحسانِ مُجاهدةٌ مُستمرّةٌ وعملٌ دَؤوب، فعبَّرَ عنه بالفعلِ الدّالِّ على التّجدُّدِ الاستمراريِّ، وأنَّ الكفرَ باللّه ورفضَ الانصياعِ للحقِّ حالةٌ باتّةٌ وقرارٌ ثابتٌ متحقّقٌ حتى صار صفةً سكونيّةً لا تقبلُ النّقاشَ ولا الدّعوةَ، فعبّر عنه بالفعلِ الماضي الدّالِّ على الثّبوتِ

والتّحقُّقِ وعدمِ التّزحزُحِ عنه، بخلاف (مَن يكفر) فإنَّ هنالك مَجالًا لدعوتِهِ والحزنِ على قراره، والتّأسُّفِ على صدورِ ذلك الحدثِ منه.

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾:

وُجـــوبُ تَـــرْكِ التَّـحَـسُّـرِ عَـلى كُفْرِ الكافِرينَ

(الفاءُ) في ﴿فَلَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ رابطَةٌ لجوابِ الشَّرط، وهيَ مفيدةٌ تحقُّقَ الجَواب بوُجود شَرْطِه، أي: إنَّ الكُفْرَ إذا تُحُقِّقَ صدورُه؛ فينْبَغي إحداثُ الجوابِ وهو مُباعدةُ الحُزْنِ والتَّحسّر على كُفْر مَن كفَرَ.

غَرَضُ النَّهْيِ في قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾:

تَـأثُّـرُ النَّـبـيِّ ﷺ بِـأحْـوالِ النَّـفْـسِ البَشَـرِيَّةِ

النَّهيُ في ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ يُراد به النُّصْحُ والإرْشادُ؛ لِما فيهِ مِن تَحْقيقِ مَصالِحَ دُنْيَويَّةٍ وأُخْرَويَّةٍ، ولا تَمْنَعُ هذهِ الدّلالَةُ مِن وُجوبِ الامْتِثالِ لمَضْمونِ النُّصْحِ شَرْعًا؛ لِصُدورِ الأمْرِ مِنَ اللّهِ تَعالى.

ووَجْهُ النَّهْيِ في هذا: أنَّ نَفْسَ الرَّسولِ ﷺ، وإنْ بلغَتْ أعْلى درجاتِ الكَمالِ؛ فإنَّه يَعْتَريها أحيانًا أحوالُ النُّفوسِ البَشَريَّة، فقَد تَتَأثَّر في أوقاتِ الشِّدَّة بمَظاهِرِ الأسْبابِ، وتَنْتَظِرُ حُدوثَ المُسَبِّبات المُعْتادَة[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ ﴿يَحْزُنكَ﴾:

النَّهْيُ عَنْ مُطْلَقِ الحُزْنِ عَلى كُفْرِ مَنْ كَفَرَ

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يَحْزُنكَ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ للدّلالَةِ على الدَّوام، والمُرادُ: دوامُ النَّفْي واستمرارُه لا نَفْيُ الدَّوام؛ إذْ ليسَ المُراد أن يَصْدُرَ منهُ حُزْنٌ مّا ولَكِنْ لا يدومُ عليهِ، وإنَّما المَعْنى أنْ لا يَصْدُرَ الحُزْنُ منهُ أصْلًا.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾:

مُـهِـمَّـةُ الـنَّـبـيِّ ﷺ هيَ الدَّعْوَةُ والبَلاغُ

(الفاءُ) في ﴿فَلَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ رابطَةٌ لجوابِ الشَّرط، وهيَ مفيدةٌ تحقُّقَ الجَواب بوُجود شَرْطِه، والجملةُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 173.

بعدَه في مَحَلِّ جَزْمٍ جوابُ الشَّرْطِ وجزاؤُهُ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ مُهِمَّة النَّبيِّ ﷺ هي الدَّعْوَةُ والبلاغ، لا الحُزنُ على كُفْر الآخرين؛ إذِ الهدايةُ بيَدِ اللّه تَعالى وحدَهُ، ومن ثمَّ لا يبعُدُ أنْ يكون النّهيُ عنِ الحُزن كنايةً عنِ النّهي عن عدمِ التّبليغِ واليأس من صلاحِ المدعوّينَ؛ إذ من لوازم الحُزن اليأسُ من هِدايتهم، فيتوقّفُ المرشدُ عنِ التّبليغ والإرشاد؛ لأنَّ الحُزن أمرٌ نفسيٌّ لا يَردُ النّهيُ عنه لذاته؛ لكونه غيرَ مقدورٍ عليه، بلِ المقدورُ عليه الاستمرارُ في الإبلاغِ والدَّعوة.

بَلاغَةُ المَجازِ العَقْليِّ في قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾:

قَـطْـعُ الـفِـكْـرِ بِـالـحُـزْنِ لِكُفْرِهِمْ؛ يَنْفي الحُزْنَ رَأْسًا

أُسْنِد النَّهْيُ عنِ الحُزْنِ إلى كُفْرِهم دونَ الفاعلِ الحقيقيّ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ من بابِ المجازِ العَقْليِّ؛ لأنّهُ السّببُ للحُزن عليهم والباعثُ للفاعلِ إلى الاتّصافِ بالحُزن؛ ولنَهْي النَّبيِّ ﷺ عَن إدامةِ الفِكْرِ بالحُزْنِ لأجْلِ كُفْرِهم؛ وذلك لأنَّه إذا قَلَع ذلكَ مِن نَفْسِه؛ انْتَفى حُزْنُه بسببِ كُفْرِهم[1].

تَوْجيهُ القِراءاتِ في قَوْلِهِ: ﴿يَحْزُنكَ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بَـيْنَ الـقِـراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ نافعٌ ﴿يُحْزِنكَ﴾، ومُضارِعُه: أحْزَنَ المتعدّي، ومعناهُ: جعلَهُ حزينًا، وقرأ باقي العشرَةِ: ﴿يَحْزُنكَ﴾[2]، ومضارِعُهُ (حَزَن) المتعدّي بالمَعْنى المُتَقدِّم، وهُما لُغَتان مِن لُغاتِ العرَبِ، أولاهُما لُغَةُ تَميم، والثّانيةُ لغةُ قُرَيْشٍ، وكلاهُما فَصيحٌ[3]، ولعلَّ في التّعديةِ بالهمزةِ مبالغةً في إيصالِ الحُزنِ وقوَّتِه في نفسِ الحزينِ، بقي أنَّ الحُزن الَّذي قامَ بالنّبي ﷺ مُحتملٌ الحُزنَ عليهم والحُزنَ مِنهم، فيكونُ النّهي عن كِليهما، وإنْ كانَ يترجّحُ لدينا أنَّ الحزنَ بسبب الكُفر كونُه منهم في جنب اللّه؛ لقولِه: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ الدّالِّ على وقوعِ العذاب عليهم عندَ الرُّجوع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 177.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 244.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 178.

علّةُ التّصريحِ بالفاعل:

تحديدُ سببِ الحُزنِ بيانٌ للمُرادِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ ذِكْرَ فاعلِ الحُزن والإحزان، وهو السّببُ في اتّصاف النّبيِّ ﷺ بالحُزن على الكافرين؛ فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾ ولم يكتفِ بالضّمير؛ للدِّلالة على أنَّ سببَ الحُزنِ على الكافرينَ هو اتِّصافُهم بالكفر دونَ ذواتِهم، وأنَّ الكفرَ وعاقبتَهُ الوخيمةَ هي التي توجِبُ الحُزن، ولو تُرِكَ الفاعلُ اتّكاءً على الضّمير لتوُهِّم رجوعُهُ إلى الموصولِ (من) دون قيدِ الصِّلة وليس هو المُراد، ورُبَّما يشعرُ إظهارُ الفاعلِ المسبّبِ للحُزن أنَّ النّهيَ مُتسلِّطٌ على اليأسِ منَ الدّعوة والإرشاد؛ لأنّ كُفرَ الكافرينَ داعٍ للقنوطِ دونَ ذَواتِهم.

نُكْتَةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾:

التّمهيدُ لِوَعْدِ اللهِ سُبْحانَهُ بِالِانْتِقامِ مِنَ الكافِرينَ

فُصِلَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ عمّا قَبْلَه؛ لِوُقوعِها مَوْقِعَ التَّعليل للنَّهْيِ المُتَقدِّم في قَوْلِه: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾، فالاستئنافُ بيانيٌّ لشبهِ كمالِ الاتِّصال؛ إذ توجّهَ سؤالٌ ضمنيٌّ منَ الرَّسولِ ﷺ عن علّةِ النَّهي بالكفِّ عنِ الحُزن على كُفرهم والاكتفاءِ بالتّبليغِ والإرشادِ فأجابَ بذلك، وهي أيضًا تمهيدٌ لِوَعْدِ اللّه تَعالى لنَبيِّه ﷺ بأنَّه يتولّى الانتقامَ مِنْهُم، الذي دلَّ عليهِ لازمُ قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ مُفرَّعًا على جُمْلَةِ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾[1].

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿إِلَيۡنَا﴾:

المَصيرُ إلى اللهِ تَعالى وحدَهُ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيۡنَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ لإرادَةِ الاهْتِمام بالمُقدَّم، وللدّلالةِ عَلى مَعنى القَصْرِ؛ أيْ: إنَّ مَرجِعَهُمْ إلى اللّهِ سُبْحانَهُ وحدهُ دونَ ما سِواهُ[2]، ودلّ القصرُ على سرِّ الاكتفاءِ بالتّبليغ؛ لأنَّ الرُّجوعَ للحِساب أمرٌ مختصٌّ باللّه تعالى، لا يتولّاه أحدٌ من خلقِهِ، فهو العالمُ بكُفرهم ويُحاسِبُهم عليه، فلِمَ يَحزُنُك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 178.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 190.

كفرُهم والحالُ أنّ رجوعَهم للحسابِ مختصٌّ بنا، ونُجازيهم على ذلك الكُفر بالعذاب الغليظ؟ بقيَ أنَّ (المرجِع) إمّا مصدرٌ ميميٌّ بمعنى (الرُّجوع) أو اسمُ مكانٍ دالٌّ على وقوعِ الرُّجوع فيه، وبتحديدِ انتهائِهما باللّه تعالى كنايةٌ عن عدمِ الإفلاتِ من قبضةِ الحسابِ على ذلك الكُفر والصدِّ عنِ اللّه تعالى وآياتِه، فلا موجِبَ للحُزن منهم حينئذٍ.

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾:

(الفاءُ) في ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ من قولِه تَعالى: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ عاطفةٌ تدلُّ على التَّرتيبِ والتَّعقيب، وفي ذلك إشارَةٌ إلى التَّعجيلِ بعَذابِهم عقبَ رُجوعِهم إليه سُبْحانَهُ[1].

دِلالَةُ عطفِ الفعليَّة على الاسميَّة:

تَصْويرُ المُسْتَقْبَلِ في صورَةِ الحالِ أشَدُّ في التَّرْهيبِ

في التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِع ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ دلالةٌ على اسْتِمْراريَّة الفِعْل وشُمولِه لِكُلِّ تَفاصيل أعْمالِهم، وفيه تَصْويرٌ للمُسْتَقْبَلِ في صورةِ الحاصِلِ الآن، وذلك أدْخَلُ في التَّرهيب وأشَدُّ، وبذلك التّعبيرِ وقعَ عطفُ النّظمِ الكريم الجملةَ الفعليَّةَ على الجملةِ الاسميَّة؛ لأنَّ الإنباءَ يدلُّ على تفصيلِ أحوالِهم وأعمالِهم وصوَرِ صُدودهم، بخلاف الرّجوعِ إليه فإنَّه أمرٌ ثابتٌ، فناسبَ المقامُ كلًّا منَ الجُملتَين.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَوْلِهِ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾:

كِتابَةُ الأعْمالِ أبْلَغُ في إقامَةِ الحُجَّةِ عَلى العِبادِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ كنايَةٌ عَن صفةٍ، وهي المُجازاةُ على الأعْمال؛ فقَد أُطْلِقَ الإنْباءُ وأُريدَ به لازِمُهُ، وليسَ هَذا مَجازًا مُرْسلًا بعلاقةِ الملزوميَّة؛ لأنَّ المَعْنى الأصليَّ وهوَ الإنباءُ حاصِلٌ غيرُ مُنْتَفٍ.

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 395.

وفي التَّعبير بالإنباءِ كنايةً عن المُجازاةِ والعذابِ إيماءٌ إلى أنَّ ما عَمِلوه مكتوبٌ ومحفوظٌ؛ ليكونَ أبلَغَ في إقامَةِ الحُجَّة عليهم[1].

مَعْنى الباءِ في قَوْلِهِ: ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾:

إبْـرازُ شُموليَّةِ الإنْباءِ

(الباءُ) في ﴿بِمَا﴾ مِن قولِ اللهِ سُبْحانَه: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ والمُصاحبَةِ، والمَعْنى: أنَّ اللهَ ﷻ سَيُخْبِرُهم بما عَمِلوا مِنْ أعمالٍ؛ صَغيرِها وكَبيرِها، وفي ذلكَ إبرازٌ لشُموليَّة الإنباءِ ودِقَّتِه؛ حيثُ تكونُ أعمالُهُم مُصاحَبَةً صُحْبَةً وثيقَةً بالإخْبارِ الذي سَيواجِهونه يومَ القيامَةِ، كما أفادتِ (الباءُ) تقويةَ التّعديةِ تحقيقًا لتقريرِ المعنى في قلوبِ الشّاكّين.

مَعْنى (ما) ومَوْقِعُ الجُمْلَةِ بَعْدَها:

تَفْظيعُ جُرْمِهِمْ وتَشْنيعُهُ

(ما) في (بما) مِن قولِ اللهِ تَعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ اسمٌ موصولٌ، والجُمْلَةُ بعدَهُ صِلةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعْرابِ، وفي التَّعبيرِ بالمَوْصولِ وصِلَتِه إيماءٌ إلى اسْتِهْجانِ إعادَةِ ذِكْرِ الكُفْرِ مرَّةً أُخْرى؛ إذْ كانَ مُقْتَضى الظّاهر: فَنُنَبِّئُهُم بما صدرَ منهُم من كُفرٍ، ولَكِنْ عُدِلَ عَن ذَلِكَ اسْتِقْباحًا لِلمَعْدولِ عَنْهُ، كما أنَّ فيه تَفْظيعًا لجُرْمِهِم، وتَعْميمًا للمُنَبَّأ به، فهو يَشْمَلُ الكُفْرَ وغَيرَهُ[2]، وتحتملُ (ما) أنْ تكونَ مَوصولًا حرفيًّا، وهي مَعَ ما بعدَها مصدرٌ مُؤوّلٌ، والتّقديرُ: (فَنُنبئهُم بعَمَلِهم)، وعدلَ عنِ (الكفر) إلى (العمل)؛ لأنَّ كُفرَهم مُستتبَعٌ لأعمالِ العَداوةِ والإيذاء، وليكونَ في مُقابلةِ العمَل في صورةِ المُؤمنِ المعبَّر عنه بقولِه: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

نُكْتَةُ حَذْفِ مَفْعولِ العَمَلِ:

حَـذْفُ اللَّفْظِ اقْـتِـصـادًا واخْتِصارًا

في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ على أنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ، وذلكَ بِحَذْفِ العائدِ، والتَّقديرُ: فَنُنَبِّئُهُم

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 395.
(2) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 395.

بِما عَمِلوهُ، فحُذِفَ اخْتِصارًا للكَلام مِن غَيْرِ أن يَنْقُصَ مِنَ المَعْنى المُرادِ شَيْءٌ.

نُكْتَةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ﴾:

فُصِل قولُ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِوُقوعِه تَعْليلًا للتَّنْبِئَة المُعَبَّر بها عنِ المُجازاةِ، والمَعْنى: أنَّ اللهَ سُبْحانَهُ يُجازيهم عَلى أعْمالِهم؛ لأنَّه ﷻ عَليمٌ بِالضَّمائرِ، فَما الظَّنُّ بغَيْرِها ممّا هو أظْهَرُ؟![1].

إحاطَةُ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ بِكُلِّ مَعْلومٍ ظاهِرًا كانَ أو باطِنًا

بَلاغَةُ الِالتِفاتِ في الآيةِ:

في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ التِفاتٌ من أسلوبِ التَّكلُّم الواردِ في قولِهِ سُبْحانَه: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ إلى الغَيْبَة؛ إذْ كانَ مُقْتَضى الظّاهِر: (إنَّنا عالِمون بذاتِ الصُّدور)، ولَكِنْ عُدِلَ عَن ذلك إدخالًا للرَّهْبَةِ والجَلال بذِكْرِ الاسمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾[2]، وليكونَ علّةً - لكونِه مُستجمِعًا لجميعِ صفاتِ الكمالِ - للخبر.

إدْخالُ الرَّهْبَةِ والجَلالِ بِذِكْرِ الاسْمِ الأحْسَنِ (الله)

دِلالَةُ التَّأكيدِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

صُدِّرت جملةُ التَّذييل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بالحَرْفِ الدّالِّ على التَّأكيد ﴿إِنَّ﴾؛ لتأكيدِ شُموليَّة عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ بجَميعِ ما في صُدورِ العِباد مِن نَوايا وخواطرَ، وفيهِ تحذيرٌ وتهديدٌ للعِبادِ عَلى أنَّ المُحاسبَةَ والمُجازاةَ لا تَقْتَصِرُ على الأعمالِ الظّاهرةِ، بَل عَلى المَقاصِدِ والنَّوايا المُنْجزةِ، وذلكَ يَقْتَضي الدَّعوةَ إلى تَصْحيحِ الأعْمالِ وتَحْسينِ النَّوايا.

تَأكيدُ شُموليَّةِ عِلْمِ اللهِ تَعالى

نُكْتَةُ تَذْييلِ الآيَةِ بِصِفَةِ العِلْمِ:

في تذييلِ قولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بصِفَةِ العِلْمِ إيماءٌ إلى أنَّ مُجازاةَ اللهِ سُبْحانَهُ العبادَ مَبْنيٌّ على عِلْمٍ مُحيطٍ

كَمالُ عَدْلِ اللهِ سُبْحانَهُ في حُكْمِهِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 74، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 94.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 191.

بأفعالِهم الظّاهِرَة والباطِنَة، وذلك مِن مُقْتَضيات العَدْلِ في الحُكْم، كما أنَّ التّنبئةَ تقتضي العلْمَ بتفاصيلِ ما عمِلوه وما أضمَروهُ مِن نيّاتٍ سيّئةٍ سَعَوا إلى تحقيقِها.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ ودِلالَةُ صيغةِ المُبالَغَةِ:

تَعْظيمُ عِلْمِ اللهِ تَعالى وبيانُ إحاطتِه

نُكِّر لفظُ ﴿عَلِيمٌ﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعظيمًا لعِلْمِ اللّه تعالى، وبيانًا لسَعَتِه وإحاطتِه، ويُؤَكِّد هذا المَعْنى التَّعبيرُ عَنِ العِلْمِ بالصِّفةِ المشبَّهة ﴿عَلِيمٌ﴾ الدّالّةِ على الثُّبوتِ واللُّزومِ وعدمِ الانفكاك.

مَعْنى الباءِ في: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

(الباءُ) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تدلُّ على الإلْصاقِ مع تقويةِ التّعدية، وهذا يَعْني أنَّ عِلْمَ اللّه سُبْحانَه مُلازِمٌ لِما في صُدورِ النّاس، لا يَعْزُب عنهُ شيءٌ.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في التّذييل:

دقّةُ الحسابِ لكمالِ العِلْم

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كنايَةٌ عن دقّةِ الحِسابِ وكَمالِ التّنبئةِ بما عَمِلوه، وأنَّ كلَّ ذلك مُحاسَبونَ عليه، ويلزمُ منه زيادةُ التّخويفِ والتّهديد لهم، معَ التّسليةِ للنّبيِّ ﷺ على عظيمِ حُزنِه بكُفرهم باللّه تعالى وسوءِ مُعاملتِهم له وللدَّعوة التي أتى بها، وذاتُ الصُّدورِ خَفاياها ونَواياها وحقائقُها التي لا سبيلَ للاطّلاعِ عليها إلّا مِن خالقِها.

بلاغةُ المَجازِ المُرْسَل في ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

التّنبئةُ عنِ الأعمالِ الصّادرةِ منهم دونَ النّيّات

آثرَ النّظمُ الكريمُ إيرادَ (المجازِ المُرسَل) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ إذ أطلقَ المحلَّ وأرادَ به الحالَ وهو القلبُ، وإنَّما لم يقل: (عليمٌ بالقلوب) لأنَّ الصّدورَ توحي بما يصدرُ عنِ القلبِ مِن نيّات وخَفايا يَصدّونَ بها عن سبيلِ اللّه وآياتِه، ويُمارسونَه بأعمالٍ يُحاربونَ بها اللّه ورسولَه، فيكونُ مُناسبًا لقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم

بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾؛ إذِ العملُ يصدرُ عنهم فيكونُ ذكرُ الصُّدور أنسبَ، بخلاف القلبِ فإنّه أمرٌ خفيٌّ لا يتّصفُ بالصُّدور عنه.

مَعْنى (أل) في: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

الإيماءُ إلى سَعَةِ عُمومِ عِلْمِ اللهِ ﷻ

(أل) في ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دالَّةٌ عَلى الاسْتِغْراقِ، والمَعْنى أنَّ اللّه تَعالى عالِمٌ بكُلِّ ما في صُدور جميعِ النّاس، وهذا فيهِ إيماءٌ إلى سعَةِ عُمومِ عِلْمِ اللّه سُبْحانَه وإحاطتِه بكُلِّ معلومٍ.

دلالةُ جمعِ: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

شُمولُ عِلْمِ اللهِ تَعالى لِجَميعِ أحْوالِ القُلوبِ

جُمِعت كلمَةُ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ للدّلالة على شُمول عِلْمِ اللّه تَعالى لجَميعِ القُلوب، وأنَّ عِلْمَ اللّهِ سُبْحانه ليسَ مُنْحَصِرًا في حالٍ واحدَةٍ أو فَرْدٍ واحدٍ، بل يَشْمَلُ النّاسَ كافَّةً بمختلِفِ أحوالِهم وأسْرارِهم وأفْكارِهم.

عِلَّة فُصْلِ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾:

أثَرُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ في إبْرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقّي وشَوْقِهِ

فُصِل قولُ اللّه ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ عمّا قبلَه؛ لِوُقوعِه استِئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ قولَ اللّه تَعالى: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ يبعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سؤالًا عَن عدَمِ تعجيلِ الجَزاء عليهم، فبَيَّن اللّهُ سُبْحانَه أنَّه يُمْهِلُهُم زمنًا ثُمَّ يوقِعُهُم في عذابٍ لا يَجِدونَ منهُ مَخْلَصًا[1].

فائِدَةُ الالتِفاتِ في: ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾:

إبْرازُ العَظَمَةِ المُقْتَضيَةِ إذْلالَ العَدوِّ وإعْزازَ الوَلِيِّ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ التفاتٌ من أسلوبِ الغَيْبَةِ الوارِدِ في قولِه سُبْحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إلى أُسْلوبِ التَّكلُّم، وذلك لإبرازِ مَظْهَرِ العظمَةِ التي من مُقْتَضياتِها إذلالُ العَدوِّ وإعزازُ الوَلِيّ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 179.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 191.

نُكْتَةُ إسْنادِ التَّمْتيعِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

تَمْتيعُ اللهِ تَعالى العِبادَ لِحِكَمٍ يَعْلَمُها سُبْحانَهُ

أُسْنِدَ فعلُ التَّمْتيعِ ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ إلى ضميرِ العظمَةِ في قول اللّه تَعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ للدّلالة على عظمَةِ اللّه سُبْحانَهُ وجلالَةِ قُدْرتِه وإرادَتِه في مَنْحِ النِّعَم لِعبادِهِ وتَمْتيعِهم بها لحِكَمٍ يعلَمُها ﷻ.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ مادّةً وصيغةً:

شِدَّةُ وقْعِ العَذابِ بَعْدَ طولِ مُدَّةِ التَّمْتيعِ بِالنِّعَمِ

في التَّعبير بصيغةِ الفِعْلِ المُضارِع ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ من قول اللّهِ ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ دلالَةٌ على أنَّ تَمْتيعَهُم بالنّعَم أمرٌ مُتَجَدِّدٌ؛ ليَعْظُمَ رُكونُهم إلى هذه النِّعم، فإذا جاءَهُم العذابُ كان أشَدَّ وقعًا عليهِمْ، ومادّةُ التّمتُّعِ تدلُّ على حصولِ تلذُّذٍ وانتفاعٍ مؤقّتٍ، فما هي إلّا مُتعةٌ عابرةٌ مهما طالتْ وتجدّدتْ.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِـ ﴿قَلِيلًا﴾ ودِلالَتُهُ:

نَعيمُ الدُّنْيا مَهْما عَظُمَ حَقيرٌ بِالنِّسْبَةِ لِنَعيمِ الآخِرَةِ

﴿قَلِيلًا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يجوزُ أن يكون ظرفًا، والمعنى: نُمَتِّعُهُم زمانًا قليلًا، ويجوز أن تكونَ صِفَةً لِمَصْدَرٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: نُمَتِّعُهم متاعًا قَليلا[1].

وفي التَّعبير عن التَّمتيع بالقِلَّةِ ظرفًا أو وصفًا؛ تهوينٌ من أمرِه وتَحْقيرٌ لشأنِه، وقِلَّتُه بالنِّسبة إلى ما يَفوتُهُم في الآخرة من نَعيم مُقيم، أو بالنِّسبة إلى قِلَّةِ مُدَّتِه في الدُّنيا؛ وهي تلك المُدَّةُ التي يُمْكِنُ للإنسانِ أن يَلْتَذَّ فيها بالمَرْغوباتِ دونَ مُنَغِّصات[2]، والغرضُ منهُ ردعُ المُتمتّعينَ بتنغيصِهم بالمدَّة القصيرةِ، وتسليةُ المُؤمنينَ بالصَّبرِ على مشاقِّ الدَّعوةِ وبعضِ المُتَعِ المُحرَّمة؛ لأنَّها زائلةٌ مُقابلَ النَّعيمِ المُقيم.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿قَلِيلًا﴾:

مَحْدوديَّةُ متاعِ الدُّنْيا

نُكتَةُ تَنْكير ﴿قَلِيلًا﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ المبالغةُ في شأنِ القلَّةِ والتّكثيرِ لدرجاتِها وكميَّتِها القليلة، ففيها دلالةٌ على أنَّهُ

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 554.
(2) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 397.

تمتُّعٌ محدودٌ ومُؤَقَّتٌ للغاية، ويلزمُ من كونِ مُتَعِ الدّنيا قليلةً لهم أنَّهم مَحرومونَ من مُتَعِ الآخرةِ الكثيرة؛ فإنْ كان نصيبُهم في الدُّنيا قليلًا فإنَّ حظَّهُم من نعيمِ الآخرة معدومٌ، بل يَنتظِرُهم العذابُ الغَليظ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الاِضْطِرارِ مادَّةً وصيغَةً:

خُلودُ أهْلِ الكُفْرِ في العَذابِ

في التَّعبير بالاضْطِرارِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ إشارَةٌ إلى الإلجاءِ والقَضاءِ الَّذي لا مَفَرَّ لَهُم منهُ، ففيهِ دِلالةٌ عَلى دَفْعِهم إلى العذابِ القَسْريِّ، وفي التَّعبير عنِ الاضْطِرار بالفعْلِ المُضارِعِ إيماءٌ إلى الدَّوامِ والاستِمرارِ، وأنَّهم خالِدونَ في العَذابِ.

وأُسْنِد فعلُ الاضْطِرار إلى ضميرِ العظمةِ لإبرازِ عظمَةِ اللّهِ سُبْحانَهُ في إنفاذِ حُكْمِه في هَؤلاءِ، وإلزامِهم بالعذابِ ودَفْعِهم إلَيْهِ دَفْعًا.

بَلاغَةُ الاِسْتِعارَةِ في التَّعْبيرِ بِالاِضْطِرارِ:

إلْزامُ أهْلِ الكُفْرِ العَذابَ فلا يَنْفَكّونَ عَنْهُ بِحالٍ

في التَّعبير بالاضْطِرارِ في قول اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استعارَةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ؛ حيثُ اسْتُعير الاضْطِرارُ للإلْزام، فشُبِّه إلزامُهم التَّعذيبَ باضْطِرار المُضْطَرّ إلى الشَّيء الَّذي لا يُمْكِنُه الفَكاكُ مِنْهُ[1]، ونتلمّسُ في دلالةِ الاضطرارِ إلى العَذابِ تهكُّمًا؛ إذ يَضطَرُّ الإنسانُ إلى أكلِ المَيتةِ من أجلِ دَفْعِ الجوع، أو تناوُلِ الدَّواءِ المُرِّ من أجلِ الشِّفاء، ففي اضطرارِهم إلى العذابِ من أجلِ سَدادِ دُيونِ كُفرهم سُخريَةٌ بهم، أو من أجلِ دفعِ ثمَنِ تمتُّعِهم بالموبقاتِ الفانيةِ تهكُّمٌ بهم.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿عَذَابٍ﴾:

تَهْويلُ العَذابِ وتَفْخيمُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٍ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لإرادَةِ تهويلِ العَذاب وتَعْظيمِه وتَفْخيمِه، كما أنَّ في التَّنكير مَعْنى الإبْهام، ممّا يَجْعَلُ ذِهْنَ المُتَلَقّي يَذْهَبُ كُلَّ مَذْهَبٍ في تَصَوُّرِ شِدَّة هذا العذابِ وفَخامَتِه.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 500.

بَلاغَةُ الاِسْتِعارَةِ في وصْفِ العَذابِ بِالغِلَظِ:

شِدَّةُ العَذابِ عَلى النَّفْسِ وتَعَذُّرُ تَحَمُّلِهِ

وَصْفُ العذابِ بـ(الغَليظِ) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استعارَةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ وذلكَ لأنَّ الغِلَظَ في الأصلِ مِن صفاتِ الأجسامِ، وأُطْلِقَ في الآيةِ الكريمةِ على الشَّديدِ مِنَ الأحوالِ عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ، بجامِعِ الشِّدَّةِ على النَّفْسِ وعدَمِ الطّاقةِ على احْتِمالِهِ[1]، وفي توصيفِ العَذابِ بأنّه جسمٌ غليظٌ لا رقّةَ فيه ولا لطافةَ له إيحاءٌ بالشّدَّةِ والاتّساعِ والثّقل، ويلزمُ منه الخلودُ والبقاءُ لكونِهِ ثخينًا لا سبيلَ للخروجِ منه.

بَلاغَةُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ النَّظْمِ القُرْآنيِّ في انْتِقاءِ الأَلْفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها

وُصِفَ العذابُ في القُرآنِ الكريمِ بأوصافٍ كثيرَةٍ، مِنْها: كونُهُ مُهينًا، وأليمًا، وعظيمًا، فيَرِدُ وصفُه بـ(المُهين) في سياقِ جَزاءِ مَن يَتَكَبَّرُ على غَيْرِهِ، ويَسْتَعْظِمُ ما عِنْدَهُ، فيكونُ العَذابُ المُهين أنْسَبَ لَه؛ لِمَحْقِه مشاعِرَ الكِبْرِ والغُرور عِنْدَهُ، ولأنَّه مُجازاةٌ لَهُ بنَقيضِ قَصْدِه، ومِنْهُ آيةُ لُقْمانَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ [لقمان: 6]، فإنَّ الباعثَ عَلى الاستهزاءِ هو الكِبْرُ وغَمْطُ الشَّيْءِ المُسْتَهْزَأِ بِهِ.

وَيوصَفُ العذابُ بالأليم؛ إذا كانَ المعذَّبُ أوِ المُتوعَّدُ بالعذابِ سبَّب بجُرمِهِ آلامًا كثيرةً لأهلِ الإيمانِ، واخْتيرَ لَهُ العَذابُ الأليمُ؛ ليكونَ الجَزاءُ مِن جِنْسِ العَملِ، ومنهُ آيةُ لُقْمانَ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان: 7]؛ فإنَّ المُبلِّغ لآياتِ اللّه سُبْحانَهُ، إذا قوبِلَ بالإعْراضِ والاسْتِكْبارِ؛ يكبُرُ ذلكَ في نفسِهِ، ويَجِدُ لذلكَ ألَمًا معنويًّا عظيمًا، فناسبَ أن يُعاقَبَ المُتَسَبِّبُ في ذلكَ الألَمِ بالعذابِ الأليم، ولم يُذْكَرِ العَذابُ المُهينُ في آيةِ لُقمانَ المُتقدِّمَةِ - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ [لقمان: 7] -

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 179.

مع أنَّه نُصَّ على الاستكبارِ؛ اكتفاءً بذِكْرِه في الآيةِ المتقدِّمَةِ، وليُجمَعَ لَهُ ألوانٌ مِنَ العذابِ.

وقَد يوصَفُ العذابُ بالعظيمِ، وذلكَ إذا عَظُمَ الجُرْمُ والذَّنْبُ؛ ليكونَ الجزاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ، ومِنْهُ قول اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة: 6 - 7]، فقد وردَتْ هذهِ الآيَةُ في سياقِ الحَديثِ عَنِ الكُفّارِ الذينَ أعْرَضوا عنِ الحقِّ واسْتَوى لَدَيْهِم الإنذارُ وعَدَمُه، فلَمّا كانَ ذَلِكَ إعراضًا عظيمًا عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ ناسبَ أن يُتَوَعَّدوا بالعذابِ العَظيمِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القُلوب والصُّدور:

الصَّدْرُ أوسَعُ والقَلْبُ أضْيَقُ

القَلْبُ هو مُضْغَةٌ مِنَ الفُؤادِ مُعلَّقَةٌ بالنِّياط، وقيل: الفُؤاد غِشاءُ القَلْبِ، والقلبُ حِجابُه، وسُمّي قلبًا لتقَلُّبِه بالخواطرِ.

ويَرِدُ القلبُ في مَقاماتٍ مُتنوِّعةٍ، كتَقْوِيَة العَزائم، ولذا اقْتَرَن بلَفْظِ (الرَّبط)، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: 14].

والقَلْبُ موضِعُ التَّكليف؛ لكَثْرَةِ الإشارَةِ بِهِ إلى العَقْلِ، ولذا خاطَب اللهُ سُبْحانَهُ به المُؤمنين بالطُّمأنينَة، في قولِه تَعالى: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ [آل عمران: 126]، وخاطب المُنافقين به بالمَرَض، في قولِه ﷻ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة: 10].

وأمّا الصَّدْرُ؛ فهو الجارحة التي أوَّلُها النَّحْرُ - وهو موضعُ القلادَةِ -، ثُمَّ اسْتُعير لمُقَدَّم الشَّيء، كصَدْرِ المَجْلِس والكِتاب والكلام، وقال بعضُ أهلِ العِلْم: القلبُ محَلُّ العقلِ، والفوائدُ محلُّ القلبِ، والصَّدرُ محلُّ الفؤاد، فيكونُ الصَّدْرُ أوسعَها والقلبُ أضيقَها.

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 56.

ويُستعمل الصَّدر باعتباره موطنًا للانقباضِ والانْبِساط، ولذا اقْتَرَنَ كثيرًا بلَفْظَتَي الشَّرح والضّيقِ، كما قال اللّهُ تَعالى في انْشِراحِ الصَّدر بالإيمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾﴾ [طه: 25]، وقال الله سبحانه في ضيق الصَّدر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحِجْر: 97][1].

(1) محمد ياس الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 106 - 112.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»